

قصيدة منزل الأقدان**دراسة تأويلية****الكلمة المفتاح: قصيدة - منزل - الأقدان****م.م. سليم أحمد إبراهيم****المديرية العامة لتربية ديالى****Saleem_Ahmed@Yahoo.com****الملخص**

يخصص المنهج التأويلي حقل دراسته للنصوص التي تتطوي على أكثر من دلالة بحيث لا تغلب دلالة منها على أخرى ، فهو يقف على دلالة معينة ثم يستشف دلالات غيرها إن توافرت ليحقق معها ما يسمى بالسكت الشعري ؛ أي إن القارئ ينفذ من دلالة إلى أخرى دون أن يكون لدلالة منها غلبة على غيرها ، أما النصوص التي تحتل دلالة واحدة فقط أو تحتل أكثر من دلالة لكن تغلب واحدة منها على غيرها فليست في نطاق هذا المنهج ، وقصيدة "منزل الأقدان" واحدة من تلك القصائد التي تدخل في حقل المنهج التأويلي ، وهذا ما دفع الباحث لتناولها في الدراسة بمباحث ثلاثة ، المبحث الأول : القراءة الأولى ، والمبحث الثاني : القراءة الثانية ، والمبحث الثالث : السكت الشعري .

المقدمة

ثمة نصوص تلفت انتباه المتلقي بعد تكرار القراءة إلى شيء يتراءى وراءها ، إلى شيء يدعو إلى ملاحظته ، وإذا حاول أن يستشفه وجده جزءاً منها ملاصقاً لها قد يكون مؤلف النص قاصداً إيابه وأراد أن يعبر عن معنيين بمعنى واحد ، وقد يكون غير مقصود منه غير أن تراكمات التجارب الأدبية لدى المتلقي هي التي أمكنته من ملاحظة ذلك الشيء ، ولنقل أوحته إليه ، وقصيدة السياب "منزل الأقدان" كانت تحمل معها ذلك الشيء الذي يغري بملاحظته وهو ما دعاني إلى دراستها على وفق المنهج التأويلي .

قد يجد المؤول نفسه مثل المشارك في لعبة كان قد قرر طريقة تطبيق قواعدها مسبقاً لكنه يضطر لتعديل بعض قواعدها على وفق تطورات تواجهه كما يحدث في أي لعبة ، فيترتب على ذلك نوع من الصعوبة والإثارة في عمله التأويلي^(١) ، وكانت الصعوبة التي واجهتها تكمن في بعض المفاصل من فضاء القصيدة ، فقد وجدتها مكتنزة بالإيحاءات الذكية ، مما أغراني بمتابعتها في سبيل رصدها .

المبحث الأول

القراءة الأولى

المراتب التأويلية ثلاث : تفهيم وتفسير وتأويل ((فكل متن لغوي لا يحتمل إلا معنى واحداً ، فهو نص والرتبة الهيرميوطيقية الملائمة له رتبة التفهيم ، وتأتي بعد رتبة التفهيم رتبة التفسير ... وهي رتبة تتعلق بالمتون التي تحتمل أكثر من معنى واحد غير أن واحداً منها يظهر على غيره وفق قرائن محددة ... أما التأويل فهي متعلقة بالمتون التي تحتمل أكثر من معنى محتمل من غير ترجيح))^(٢) .

وقصيدة منزل الأفنان تتضمن الوجهين الخطابين ، الظاهر والمحتمل اللذين يستلزمان الرتبتين الهيرمنيوطيقتين : التفسير والتأويل .

ففي قراءتنا القصيدة سنجد أن لها معنيين ؛ معنى ظاهراً نتوقف من خلاله على ذكريات السياب مع دار العبيد واجتماع الذكريات مع حال الدار وواقعها في نطاق ثنائية الحياة والموت وما يترتب على ذلك من مقارنات ، ومعنى آخر محتملاً يختبئ وراء المعنى الظاهر ، والمعنى الآخر اتخذ من المعنى الأول سترًا يتمترس وراءه ويتحد به مكوناً رمزاً لواقع أكبر وأوسع من واقع الدار وسكنته .

يبتدئ الشاعر قصيدته بما يشبه وقفة طللية يصف بها منزل الأفنان الذي أصبح خرائب خالية من بعدما كان منزلاً مأهولاً يضج بأهله والقصص التي تروى فيه والأغاني التي تنشد :

خرائبُ فانزعِ الأبوابَ عنها تغدُ أطلالا ،

خوالٍ قد تصكّ الريح نافذةً فتشرعها إلى الصُّبحِ

تُطلّ عليك منها عينٌ بومٍ دائبٍ النوحِ

وسلمها المحطم مثل برجٍ دائرٍ مالا

يئنُّ إذا أته الريح تصعده إلى السطحِ

سفينٌ تعرك الأمواج ألواحَه^(٣)

منزل الأفنان منزل ملحق بدار جدّ السياب^(٤) ، يسكن فيه العمال والخدم وللسياب فيه ذكريات طفولة عادت إليه حين وقف أمامه ، فالمنزل الذي كان ممثلاً عاد خرائب لولا الأبواب التي استبقاها لاستحق وصف (أطلال) بكل معناها ، وهو مثل أية خرابة تعثو به الريح وتسكنه البوم ، وما كان عامراً يوماً من سَلَم ونوافذ صار بالياً فأنت لا تسمع فيه غير

صفير الريح ؛ إنه منزل متهدم يرقص في كفّ الزمن مثل سفين تحطمت فالأمواج تعرك ألواحها .

وتملأ رُحبة الباحة

ذوائبُ سدره غبراء تزحمها العصافيرُ
تعدّ خطى الزمان بسقسقاتٍ والمناقيرُ
كأفواهٍ من الديدان تأكل جثة الصمتِ

وتملأ عالم الموت

بهسهسة الرثاء ، فتنزعُ الأشباحُ تحسبُ أنه النورُ
سيشرق فهي تمسك بالظلال وتهجرُ الساحة
إلى الغرف الدجبية وهي توظف ربة البيت :
"لقد طلع الصباحُ" ، وحين يبكي طفلها الشبحُ
تهدهده وتنشدُ : "يا خيول الموت في الواحة"
تعالى واحمليني ، هذه الصحراء لا فرحُ
يرفُ بها ولا أمنٌ ولا حبٌّ ولا راحة"^(٥)

الباحة ، هي الساحة التي تكون في وسط الدار ، ورحبة الباحة ، هي الفضاء الذي يعلوها ، وهذا الفضاء تملأه أغصان سدره غبراء ، أي : سدره لونها أغبر (لون التراب)، أو هي مغبرة (قديمة) ، ويبدو أن العصافير المسقسقة هي الشيء الوحيد الذي بقي على قيد الحياة هناك وتدل على وجود حياة بأصواتها التي تعطي للزمن قيمة وتُسعرُ بوجوده ، فمن دونها يخيم الصمت وحين تسقسق تنخر جثة ذلك الصمت ، وليس هذا فحسب ، فأصواتها بمثابة رثاء لعالم الأموات حتى انها لتُنزعُ الأشباح ، إنَّ أصوات العصافير تضج دائماً حين شروق الشمس لتُسعر أن النور سيملاً العالم ، وهذا ما يجعل الأشباح تهرب من ساحة البيت ، والساحة ، هي المساحة التي تقع وسط البيت ، وواضح أن الشاعر جعل عالم الحياة العالم الأعلى (رحبة الباحة) ، وعالم الأموات (الساحة) هو العالم الأسفل ، وبهروب الأشباح تسلك الظلال لكي لا تتأثر بالنور ولتصل بأمان إلى الغرف المظلمة ، إن الأشباح إمّا طيف جنّ تسكن البيت المهجور ، أو أرواح ساكني الدار عادت إليه بعد موتهم ، وما أشدّ خوف الأشباح من النور فهي تنقل خوفها إلى الشبح الأم لتوقظها وتفرعها ويفزع الشبح الطفل معها ويبكي فتهدده بترنيمة من الترانيم التي تحكي أحياناً قصة تلهي الأطفال ، وقصتها ، أن

هناك واحة جميلة فيها خيول تعود للموت، فالأم تدعوها لتنتشلها من بيت يقع في صحراء مقفرة تفتقد الأمان والحب والراحة إلى الواحة التي ستجد فيها ما تريد ، ولابد من أن الطفل الشبح سيهدأ لهذه الترنيمة .

ألا يا منزل الأفتان ، كم من ساعدٍ مفتولٍ
رأيت ومن خُطى يهتز منها صخر ك الهاري !
وكم أغنية خضراء طارت في الضحى المغسول
بالشمس الخريفية
تحدث عن هوى عاري
كماء الجدول الرقاق ! كم شوقٍ وأمنية !!
وكم ألم طويت وكم سقيت بمدمع جارٍ ؟!
وكم مهد تهز فيك ، كم موتٍ وميلادٍ
ونارٍ أوقدت في ليلة القرّ الشتائية
يدندن حولها القصاص : "يحكى أن جنية ..."
فيرتجف الشيوخ ويصمت الأطفال في دهشٍ وإخلاقٍ
كأن زئير آلاف الأسود يرن في وادٍ
وقد ضلّوا حيارى فيه ، ثم ترن أغنية :
"أتى قمر الزمان ... " ودندن القصاص : "جنية"
ويؤسهم المرير : الجوع والأحزان والسقم
وطفل مات لمّا جفّ درّ - ماتت المعزى
وجاعت أمّه فالتدي لا لبن ولا لحم
سمعت صراخها والليل ينظر نجمه غمزا
وولولة الأب المفجوع يخنق صوته الألم^(٦)

هناك يشرع السياب برثاء منزل الأفتان ، ويبدأ بتعداد محاسنه ، ولقد شهد هذا المنزل كلّ مظاهر الحياة والشباب بعنفوانه ، فهو يختزن في ذاكرته مخايل القوة وقصص الحب والطرب بأغانٍ عذبة في أضحيان أيام الخريف ، ويختزن الأشواق والأحزان وينطوي على آلام أهله ، ويحمل في أرجائه أصداً ترانيم الأمهات لمواليدهنّ وهن يهزرن مهودهم ، ثم يذكر مآسيه ، فثمة حقبة مرت به وأهله يشملهم البؤس بردائه حتى إن القاص الذي يروي

قصصاً خرافية عند النار في الشتاء يمكنه أن يتلاعب بمشاعرهم فمن خوفٍ ويأسٍ إلى أمل كبير ثم إلى خوفٍ ، وما أتعس بؤسهم وهم ينيطون كلَّ أملهم بشخص المخلص (قمر الزمان) ، إنهم أناس بائسون يأسرهم الجوع والحزن والسقم ، ولقد يتوفى طفل لهم بسبب الجوع والمرض بعد أن ينهكاه وأمه ويأخذها مصدر رزقهم (المعزى) فصراخ أمه وولولة أبيه يهزان أرجاء المنزل ، ولعل المحاسن التي ذكرها الشاعر كانت في الماضي البعيد لهذا المنزل وتمثل سنوات شباب المنزل ، أمّا مآسيه فقد حلت في ماضٍ قريبٍ يمثل شيخوخته ، ولقد كان السياب بارعاً حين فصل بين ذكريات الحقتين بكلمة (الموت) في (كم موتٍ وميلادٍ) .

ولو خُيرْتُ أبدلتُ الذي ألقى بما ذاقوا ،
ممضٌ ما أعاني : شلَّ ظهرٌ وانحنت ساقُ
على العكاز اسعى حين اسعى ، عاثرَ الخُطوات مرتجفا
غريبٌ غير نار الليل ما واساه من أحدٍ
بلا مالٍ ، بلا أملٍ ، يقطع قلبه أسفا
ألست الراكض العداء في الأمس الذي سلفا ؟
أأمكث في ديار الثلج ثم أموت من كمدٍ
ومن جوع ومن داء وأرزاءٍ
أأمكث أم أعود إلى بلادي ؟ آه يا بلدي
وما أمل العليل لديك شُحَّ المال ثم رمته بالداءِ
سهاًمٌ في يد الأقدار ترمي كلَّ من عطفها
على المرضى وشدَّ على ضلوع الجائعين بصدرة الواهي
وكفكف أدمع الباكين يغسلها بما وكفا
من العبرات في عينيه - إلا رحمة الله
ألا يا منزل الأتقان ، سقَّتْك الحيا سحبُ
تروِّي قبري الظمآن ،
تلتئمهُ وتنتحبُ^(٧)

عرج السياب إلى رثاء نفسه بعد رثاء المنزل ، ولا يخفى التقارب بين الرثاءين ، فالشاعر مثل المنزل عاش أيام فتوة وشباب كان فيها عداءً ثم أنهكه المرض وتركه مقعداً لا

تقوى قدماءه على حمله ، فهو يتمنى أن يعيش حياة أولئك العبيد البؤساء مقابل أن يشفى من مرضه ، وها هو ذا يعيش غريباً في لندن وأجوائها الشتائية القاسية لا يؤنسه غير نار الليل مثل أولئك البؤساء في منزل الأقفان ، إنه حائر بين أن يبقى في غربته التي ربما مات فيها وأن يعود إلى بلده الذي عانى من أجله ما عانى وهو ينصر المظلومين والفقراء في نضاله السياسي ، إنه رجل عليل فقير ليس مثل السابق من عهده لا أمل لديه إلا رحمة الله ... ويختتم السياب قصيدته بدعاء لمنزل الأقفان ولنفسه بالسقيا من سُحْبٍ محبة له وللمنزل إذن هي غزيرة البكاء ، والدعاء بالسقيا هو من شعائر الشعراء يختتمون به وقفاتهم الطللية .

المبحث الثاني

القراءة الثانية

من معطيات الحداثة أن يتناول الشاعر رُكناً من الواقع يسלט الضوء عليه جاعلاً منه رمزاً لواقع أوسع منه على أن يكون ذلك الركن مشتملاً المظاهر الإيجابية والسلبية التي تنطبق على جوانب الواقع الأكبر .. ولقد اختار السياب لقصيدته "منزل الأقفان" أن تكون رمزاً من هذا النوع فالوقفه الطللية والبكاء على الذات رمز للخراب الذي خلفه الاحتلال في بلده وشفعته الصراعات على السلطة ورمز للحزن على ضياع النضال السياسي الذي قدمه حيث لم يثمر استقراراً ونعياً لابناء وطنه وإنما ضاع هباء في أدراج الرياح ، والسياب غير بعيد عن هذا الأسلوب في الرمز ، فهو الذي كتب قصيدة "المومس العمياء" وجاءت رمزاً لواقع شعبه الذي أذله المحتلون واستنزفوا خيراته أرضه ومن براعته أنه كثف مأساة "المومس العمياء" في موقف من القصيدة فأختزل مأساة الشعب برمز مكثف :

ويح العراق ..

أكان عدلاً فيه أنك تدفعين

سُهادَ مقتلِكَ الضريرة

ثمناً لملساء يديك زيتاً من منابعه الغريزة

كي يثمر المصباح بالنور الذي لا تبصرين^(٨)

فالمومس ضريرة وتدفع سهادها ثمناً للزيت الذي يضيء غرفتها لينتفع به غيرها.. والشعب ذليل يكّد لكي يقدم خيراته بلاده لينتفع بها مغتصبو أرضه .. لقد عبر الشاعر عن مأساتين بمأساة واحدة .

إن الوقفة الطللية التي وضعها الشاعر أمانا تخفي وراءها ما يريد أن يقوله عن الواقع المرير الذي يمر به بلده آنذاك وهو تتجاذبه قوى عدة وتتحكم بمصيره التقلبات السياسية والانقلابات العسكرية فجاءت هذه الوقفة الطللية رمزاً مكتفاً للواقع الذي يشهده البلد :

خرائبُ فانزعِ الأبوابِ عنها تغدُ أطلالا ،
خوالٍ قد تصكّ الريحُ نافذةً فتشرعها إلى الصُّبحِ
تُطلّ عليك منها عينٌ بومٍ دائبٍ النوحِ
وسلمها المحطم مثل برجٍ دائرٍ مالا
يئنُّ إذا أتته الريح تصعده إلى السطحِ
سفينٌ تعرك الأمواج ألواحهُ

إن الخرائب التي لازالت محتفظةً بالأبواب وإذا ما نزعَت أبوابها عادت أطلالاً هي رمز للبلد الذي تعصف به التغيرات المفاجئة فلقد عاد شبه خالٍ من الحياة فلو تجاهلنا بعض أركان العيش فيه لوقفنا أمام بلد خواءٍ من كل دلائل الحياة ، أما الريح التي تعيث به وتتلاعب بنوافذه فهي رمز الأحداث التي زعزعت وعاثت باستقراره ونلاحظ أن اللوحة لا تخلو من (عين بوم) ينوح ولا ينقطع عن النوح رامزة للشؤم المحدث بأهل البلد والشؤم في حقيقته توقع للشر في المستقبل ولقد أراد الشاعر أن الأحداث لا تبشر بمستقبل رغيد لآبناء البلد ، ويرفد هذا الرمز (سلم محطم) والسلم يمثل التقدم والارتقاء وهو الآخر طالته يد الخراب وغيرت ملامحه الأحداث العاتية فعاد خواء من كلّ مرتقى سوى أثر الخوف والموت والنقمة ، إن هذا الحال يذكر كلّ من أطلّ عليه بحال (سفينٍ تعرك الأمواج ألواحهُ) والصورة هي الأخرى رمز لبلد تتحكم بمستقبله التقلبات السياسية .

وتملاً رُحبة الباحة

نوائبُ سدرِ غبراء تزحمها العصافيرُ
تعدّ خطى الزمانِ بسقسقاتٍ والمناكيرُ
كأفواهٍ من الديدان تأكل جثة الصمتِ
وتملاً عالم الموتِ

بهسهسة الرثاء ، فتفرغُ الأشباحُ تحسبُ أنّه النورُ
سيشرق فهي تمسك بالظلال وتهجرُ الساحة

إلى الغرف الدجية وهي توقظ ربّة البيت :

"لقد طلع الصباح" ، وحين يبكي طفلها الشبحُ

تهدهده وتنشدُ : "يا خيولَ الموتِ في الواحةُ

تعالِ وأحمليني ، هذه الصحراءُ لا فرحُ

يرفُ بها ولا أمنٌ ولا حبٌّ ولا راحةُ"

ينتقل السياب من جانب يحكمه الموت لا شيء غيره إلى جانب آخر من اللوحة يتمتع بشيء من الحيوية والحركة وهذا الجانب رمز لطرفين يتنازعان ، أحدهما يدعو النور ليشرق على أرجاء البلد والآخر يفرّ من سماعه دعوة النور ويلجأ إلى قوى الظلام والموت . تشخص السدرة الغبراء في لوحة القصيدة وهي تملأ فضاء ساحة الدار (رحبة الباحة) لتشكل جانباً مناقضاً للجزء الأول من اللوحة إذ تحمل أنفاس الحياة وحركتها الإيجابية ، ويكونها تملأ الفضاء فقد أخذت الجانب العلوي من المنزل والجانب الرحب ليبقى الجانب الأرضي السفلي للموت وأسبابه وظلماته ، والسدرة (غبراء) بمعنى (قديمة) أو لونها (أغبر) ودلالة اللون لا تبتعد عن دلالة القدم أيضاً ، وتلتحم بلوحة السدرة عصافير مسقسقة لا تكف عن سقسقاتها بدلالة أنها تعدّ خطى الزمان فأصواتها داخلية في نسق الثواني والدقائق إنها لتعطي لمرور الوقت قيمته ، ولكم يحتاج حساب الوقت من دقة ونباهة لا يجيدها إلا كائن رقيق نبيه يحمل مناقير دقيقة كأنها أفواه ديدان ، وتكتمل أركان اللوحة بذكر المغزى من وجود العصافير وهو أنها تجاهد الصمت الجاثم في الموقف وبإطلاقها أصواتها تعلن الحرب على عالم الموت حرباً هامسةً بهسهسة الرثاء ، ولا يتناقض الرثاء مع الحياة التي تدعو إليها العصافير هنا لأنه رثاء موجه إلى الموت انه رثاء لعالم الموت الذي تتوعده أسباب الحياة . تتراءى السدرة في القصيدة رمزاً لجانب الحياة والأمل وهو يشغل الركن الأعلى ليشكل ما يشبه سلطة علوية تهدد الموت وظلماته وهو رمز متكامل يحمل معه العنصر الذي ينفذ مشروعه فهو مزدحم بالعصافير والعصافير رمز للقوى الخيرة المتحررة ويبدو أنها تعمل وحيدة في الموقف فجهادها يحطم زجاج الصمت الجاثم كي يحقق مبتغاه ويغير سلبيات الموقف وهو بكل ذلك يعمل بهمس وهدوء ملآن ثقة من نتائج عمله .

وتفاجئنا انتقاله من عالم الحياة والنور والنضال من أجل الحرية إلى عالم الظلام والموت والأشباح ، فها هي ذي أصوات العصافير تدهم عالم الموت فتثير الذعر بين الأشباح فهي دعوة للنور كي يظهر ويعم الموقف ، وقد فهمت الأشباح المغزى من سقسقات

العصافير ففزعت وصارت تتصيد الظلال ، والظلال عتمة يسقطها الشيء الذي يقف أمام النور ، إن موقفها عصيب ولا بد من أن تهجر "الساحة" إلى مكان يعمه الظلام ، ولنا ان نتوقف عند "الساحة" التي تحمل دلالة موقع مشترك تتجاذبه القوتان ، قوى النور ، وقوى الظلام "الأشباح" ، انه نقطة التقاء بينهما لا يبقى فيه الطرفان معاً وإنما يطرد أحدهما الآخر منه والأقوى هو الذي يسيطر عليه ، وبما أن الأشباح هي الطرف الضعيف فهي التي تغادر الساحة لتترك المجال للنور وقوى النور لتحل محلها ، وتتابع الأشباح هربها إلى الظلمات حيث تنقل فرعها إلى ربة البيت "الشبح" فيفرع من فرعها طفلها "الشبح" فتشرع بتهدئته بحيلة الغناء الذي قد لا يفهم منه الطفل شيئاً إلا إيقاعاته التي تؤنسه وتلهيه عن الفرع وما نلحظه على الأغنية أنها أغنية يائسة تظهر لنا شدة الفرع لدى ربة البيت وتظهر مدى يأسها إنها أغنية موت تدعو بها الموت ليخطفها وطفلها إلى موطنٍ يستقر به الموت ولا تصل إليه أسباب النور والحياة ولا تدنو منه ، ونلاحظ أيضاً أن الأغنية تسمي الحياة التي تهدد وجودها "صحراء" ليس فيها فرحٌ ولا أمان ولا حب ولا راحة ، فما أشدّ التصاقها بعالم الموت وانجذابها إليها ! إن اللوحة الشعرية تنقل لنا حال الضعيف الخائف فهو يترك الساحة لغيره وينتقل خوفه إلى بيته فيفرع ربة البيت وطفلها ويتركها تتمنى الموت وتغني له .

نقول إن الأشباح في هذه اللوحة بصفاتها رمزاً تحتل احتمالين : الاحتمال الأول : إن الأشباح الخائفة رمز للمواطن الخائف الضعيف ، فهو لا يرد الظلم وهو بذلك أشبه بالميت "الشبح" لا يُسير حياته بل يسيرها ويسيره غيره ، وهذا الصنف من الناس إذا ما لاحت بوادر انتفاضة انسحب من الشوارع "الساحة" وهرع إلى بيته ناقلًا معه الهلع إلى أسرته تاركاً إياها في موقف تتمنى الموت لتتجو من الزعازع ، وبهذا تكون "خيول" الموت رمزاً لطلب الموت حقيقةً .

الاحتمال الآخر : إن الأشباح رمز للعناصر المندسة بين الناس والتي تتجسس على تحركات المناضلين لحساب قوى الظلام^(٩) ، وهذا الصنف أيضاً صنف ضعيف يمتلكه الخوف فإذا ما لاحت بوادر "النور" الانتفاضة ، هجر "الساحة" إلى مواطن قياداته في الغرف المظلمة لاجئاً إليها طالباً منها أن تخلصه من هول الموقف ، وبهذا تكون "خيول الموت" رمزاً لأدوات الموت من دبابات ومصفحات تجلب الموت للناس وللجنة المنتفضة ، تستدعيها قوى الظلام لتفتك بالمنفضين وتجلب لهم الموت ، وهذه الأدوات تُستجلب من موقع تكون فيه آمنة بالطبع "الواحة" وإذا أخذت الجواسيس معها أخذتهم إلى "الواحة" .

وفي نهاية أنشودة الأم تختتم اللوحة الأولى من القصيدة لينتقل السياب إلى ما يشبه الرثاء :

ألا يا منزل الأفتان ، كم من ساعدٍ مفتولٍ
رأيت ومن خُطى يهتز منها صخرُك الهاري !
وكم أغنية خضراء طارت في الضحى المغسولِ
بالشمس الخريفية
تحدث عن هوى عاري
كماء الجدول الرقاق ! كم شوقٍ وأمنية !!
وكم ألم طويت وكم سُقيت بمدمع جارٍ ؟!
وكم مهدٍ تهزّز فيك ، كم موتٍ وميلادٍ
ونارٍ أوقدت في ليلة القرّ الشتائية
يدندن حولها القصاصُ : "يحكى أن جنية ..."
فيرتجف الشيوخ ويصمت الأطفال في دهشٍ وإخلاقٍ
كأن زئير آلاف الأسود يرن في وادٍ
وقد ضلّوا حيارى فيه ، ثم ترنُّ أغنية :
"أتى قمر الزمان ... " ودندن القصاص : "جنية"
وبؤسهم المرير : الجوع والأحزان والسقمُ
وطفل مات لمّا جفّ درٌّ - ماتت المعزى
وجاعت أمّه فالتدي لا لبنٌ ولا لحمٌ
سمعت صراخها والليل ينظر نجمه غمزا
وولولة الأب المفجوع يخنقُ صوته الألم

لا يزال "منزل الأفتان" ركنًا يخفي وراءه واقعاً أكبر فهو رمز مكثف للواقع بإيجابياته وسلبياته ، وكل صفةٍ يطرقها الشاعر هي رمز لحقبة من تاريخ البلد القريب أو البعيد ، وقد بدأ بالأيادي التي بنت مجد البلد في زمانها وهي ذوات سواعد مفتولة ، ولكم يحتاج بناء المجد لقوة عظيمة تبني وتدفع الاعتداء وترده ، ومن يبنون المجد لهم أثر عظيم وصيتٌ واسع وخطاهم يهتز لها البلد فيثبت الركن المتماسك ويتلاشى الركن الضعيف ليحل محله ركن أقوى ، وتاريخ البلد لا يخلو من أزمانٍ جميلة يعمها الرخاء وتتعالى فيها أغاني العشاق

في الأوقات المشمسة الخريفية حيث تشبك الشمس أرجاء البلد بخيوطها الذهبية وتصبغ كل شيء بلونها ، وأغاني العشق في أوقات الرخاء تزيد الجمال جمالاً ، وكأنها الماء العذب الذي يروي العطاش وكأنها رققة الماء الصافي في جدول عذب ، وترتبط بها أشواق العشاق وأمانيتهم التي لا يلوح فيها غير الجمال والخيالات الخلابة ، وفي مقابل الأزمان التي تتصف بالقوة والجمال مرت بهذا البلد أزمان يذرف فيها الدمع من الألم والحزن والحسرة ولعلها أزمان الحروب وأزمان القحط والجوع والفقر ، انه بلد يجمع كل إيجابية وكل سلبية ممكنة انه يستقطب التناقضات مثلما يجمع الموت والبلاد عبر أزماته .

ينتقل الشاعر إلى لوحة أخرى فيها رموز لأبناء البلد ولعلها رمز لهم في الحقب التي تسيطر فيها القوى الظلامية فيجمد الفكر ويتراجع التعليم ويتلاشى الوعي عندهم فيصبحون العوبة في أيدي الظلاميين يغمرهم عقولهم الفارغة بما يشاؤون ، يرعبونهم تارة ، ويسكنون روعهم تارة .

وضع السياب الأطفال والشيخوخ في هذه اللوحة رمزاً لجيلين جيل ناشئ وجيل متقدم في العمر ، ووضع معهم القصاص رمزاً لمن يتلاعبون بمشاعر الناس ، فجيل الشيخوخ استقر في نفوسهم تصديق كل كذبة وتشربت فيهم مشاعر الإذعان حتى صاروا يهتزون لكل كلام يقال لهم ، إنهم مثال لمن تمكن منهم الكذابون ، كل التمكين ، أما جيل الأطفال فقد بدأوا للتو ينصتون للكذب ، وإذا ما استمر حالهم هكذا ، فمصيرهم مصير الشيخوخ - الجيل السابق لهم - سيصيرون عبيداً لقوى الظلام ولن ينتج حينذاك جيل متحرر يرد الظلم ويأخذ حقه ويسترد خيارات بلده من غاصبيه ، ونلاحظ ان القصاص - الكذابون - يختار الحديث عن القوى الغيبية - الرمز "جنية" ليعمق مشاعر الخوف وليمتلك عقول الجيلة ومشاعرهم ، وهذا موجود في منهج كل من أراد ان يستعبد شعباً ، فللخوف سطوة عليهم وكأنهم تاهوا في وادٍ ، وقد أحاطت بهم آلاف الأسود وهي تزار مشعرة انها ستنتفض عليهم ، ولكي يتم القصاص - الكذابون - حيلتهم لابد من ان يتركوا للطمأنينة مجالاً في كذبهم ، وأية طمأنينة تلك التي تأتي من كذبة مجيء المخلص (قمر الزمان) ، ثم يعود الكذابون لاستثارة مشاعر الخوف لأن مشاعر الخوف تمكنهم من المستعبدين أكثر من مشاعر الطمأنينة .

ولا يغادر السياب هذه اللوحة حتى يصف حال أبناء شعبه أيام هم مستعبدون موظفاً رموزاً لذلك ، فالطفل - الجيل الجديد - حكمه حكم الميت حيث نصبت منابع الخير - جف در - والمعزة حيوان قليل اللحم واللبن إذا قورن بالغنم والبقر ، وهذا يعني أنه معين ضئيل

يعتمده الفقراء في عيشهم ، ولقد انقطع هذا المعين الوحيد ، إذن الموقف محكوم بالجوع الذي يجر على الإنسان الحزن والمرض ويكاد يلغي وجوده في هذه الحياة ، ويكمل الشاعر لوحته بذكر الأم التي أهزلها الجوع وهي لا تملك إلا الصراخ على طفلها ، والأب الذي لجأ إلى الولولة على طفله ، ونلمح الأم رمزاً لشعب أكبر من شعب العراق وحدود أوسع من حدوده ، لعلها رمز للأمة لأنها تضم العراق جزءاً منها ، ولقد فقدت الأمة تماسكها وقوتها فإذا ما ضيم شعب من شعوبها ردت بالصراخ لأنها هزيلة وشعوبها مستعبدة تمكن منها الجوع والحزن والمرض أيضاً ، ونلمح في الأب رمزاً للقوة وقد استبدلت بالعويل ، فالأم والأب فقدتا مقومات الأمومة والأبوة ، هذا منطبق على حال الأمة وشعوبها .

يلتفت السياب إلى نفسه راثياً إياها مقارناً بين حاله وحال أمته ، لأنه رمز للنضال الذي لم يثمر شيئاً بعدما عصفت قوى الظلام فعاد هزيراً سقيماً لا يقوى على الدفاع عن حق شعبه :

ولو خُيرْتُ أبدلتُ الذي ألقى بما ذاقوا ،
 ممضٌ ما أعاني : شلَّ ظهرٌ وانحنت ساقُ
 على العكاز اسعى حين اسعى ، عاثرَ الخطوات مرتجفا
 غريبٌ غير نار الليل ما واساه من أحدٍ
 بلا مالٍ ، بلا أملٍ ، يقطع قلبه أسفا
 ألسنت الراكض العدا في الأمس الذي سلفا ؟
 أمكث في ديار الثلج ثم أموت من كمدٍ
 ومن جوع ومن داء وأرزاءٍ
 أمكث أم أعود إلى بلادي ؟ آه يا بلدي
 وما أمل العليل لديك شحَّ المال ثم رمته بالداءِ
 سهامٌ في يد الأقدار ترمي كلَّ من عطفَا
 على المرضى وشدَّ على ضلوع الجائعين بصدرة الواهي
 وكفكف أدمع الباكين يغسلها بما وكفا
 من العبرات في عينيه - إلا رحمة الله

الشاعر في هذه اللوحة يعرض ما آل إليه حاله بعد انقضاء سيرته النضالية^(١٠) فهو عاجز أمام ما يحصل له ولشعبه ويتمنى لو أنه بكامل قواه فيتحمل بدلاً من شعبه مرضهم

وجوعهم وفقرهم ليعيشوا هم بسلامٍ وطمأنينة ، ونستطيع ان نفهم من الرمز الذي أماننا الشلل وانحناء الساق والسعي على العكاز والتعثر والغربة ، نفهم توقف الشاعر عن نضاله مرغماً لأن واقعهُ يلزمه ذلك، ويفرض عليه قيوداً كثيرة منها انه معروف بمواقفه النضالية ومنها انه مريض وفوق هذا هو مغترب ، فإذا ما سعى في سبيل بلده تعثر سعيه وتوقف ، ويضفى على ذلك أنه يفقد المورد الذي يعينه على نضاله ، إنه وحيد في موقفه وهو المناضل المعروف الذي يسبق الجميع في مصلحة شعبه ، وها هو ذا يتمنى الأمنيات ان يعود إلى بلده عاجزاً أمام الحياة حاملاً معه أسباب التراجع والانهيال فكأن الأقدار تختار أصحاب المواقف المشرفة الذين يزودون عن الفقراء والمرضى لتصيبهم بالفقر والمرض ، ولم تبق عنده من حيلة غير رحمة الله تنتشله وشعبه من المصير المعتم .

ثم يختتم الشاعر قصيدته بالدعاء لبلده - منزل الأفتان - بالرحمة ان تحل عليه من السماء وتروي سيرة نضال الشاعر التي اندثرت لعلها تعود وتثمر :

ألا يا منزل الأفتان ، سقَّتْك الحيا سحبُ

تروِّي قبري الظمآن ،

تلثمُهُ وتنتحبُ

المبحث الثالث

السكت الشعري

السكت الشعري هو جدلٌ يقام بين الأوجه الخطابية ، ويجعل تحديد وجه خطابي منها أمراً مستحيلاً ، بل هناك دوران مستمر ولا تحديد لهذه الأوجه الخطابية^(١١) ، ولنقل إنه تتافذ بين الأوجه الخطابية وعدم الثبات على وجه خطابي منها^(١٢) .

وبما أننا قدمنا قراءتين في هذا البحث فهنا نشرع بإقامة وجه السكت الشعري الذي يتيح لنا النفاذ من قراءة إلى أخرى .

في القراءة الأولى توقفنا على دلالات في قصيدة "منزل الأفتان" أفادت بأننا تشبهه وقفة طल्लीة أمام منزل العبيد ينظر الشاعر فيها إلى بقايا الدار ويتذكر ما فيه وأيامه بإيجابياتها وسلبياتها ويذكر حال العبيد الذين يسكنونه ثم يقرن نفسه وحاله بحال الدار وعبيده فمن بعدما كان مكافحاً من أجل حرية شعبه عاد مريضاً كليلاً لا يقدر على نضال.

وفي القراءة الأخرى كانت الوقفة الطللية دلالة تخفي وراءها دلالة أخرى فهي رمز لحال بلد عاث فيه المحتلون وتجاذباته الانقلابات والتقلبات السياسية وتركته بلا استقرار وعلى جرف هار ، ولمحنا ساكني الدار رمزاً لشعب العراق وهو يقطن تحت ظلة المستعمر أو في خضم التقلبات السياسية ، أما الشاعر فهو رمز لكل مناضل متحرر عاد عاجزاً عن نضاله وحرية بعد ان ضاع ما قدمه في سبيل وطنه .

وهنا نتوقف عند القراءتين وننفذ من أحدهما إلى الأخرى كي يتحقق السكت الشعري ، ونبدأ المقطع الأول نقول ان الخرائب شبيهة الأطلال التي تعبت فيها الريح وتسكنها اليوم ويئن سلمها المحطم إذا عصفت الريح ، هي مشاهد حقيقية حاضرة في ذهن السياب يذكرها لأنها شاهدها بعد خلو الدار من أهلها وأثرت بمشاعره فتناولها في شعره ، ومن الممكن ان نعد هذه الدلالات رموزاً لحال وطنه فهي لوحة تخفي وراءها دلالات عن الخراب الذي تركه المستعمر والتقلبات السياسية ، ولنعكس الحالة ونقرأ الخرائب وما تحويه من دلالات الدمار والشؤم رموزاً في بادئ الأمر ثم ننظر إليها بعدّها شواخص حقيقية ، فإننا سنجد الدلالات تتغير بصورة ممكنة من حقيقية إلى رمز وبالعكس دون ان تتغلب أحدهما على الأخرى وبهذا يتحقق السكت الشعري .

وفي المقطع الثاني دلالات السدرة والعصافير التي تضج بسقسقاتها وهي دلالات الحياة ، وتقابلها دلالات الظلام والأشباح وهي دلالات الموت ، هي دلالات حقيقية تنقل تصورات الشاعر عن الدار ، أراد أن يشعرنا بأن الحياة المتبقية في الدار هي تلك العصافير فقط ، ولنقرأها قراءة رمزية جاعلين من الدلالات المتناقضة رمزاً لطرفين يتنازعان في واقع البلد أحدهما يدعو للحرية والنور والحياة والآخر يرفض الدعوة كلّ الرفض ، ونتوقف ونعود إلى دلالات الرمز بادئين بها قراءتنا فنحن أمام رموز لطرفين متناقضين يتنازعان ، أحدهما يدعو إلى النواذر والآخر ظلامي لا يستجيب بل يرفض ويفضل القيود والموت ويدعو لها ثم ننفذ عنها إلى الدلالات الحقيقية لنقرأها على انها مشاهد حقيقية تتوافر فيها السدرة والعصافير وتضفي إليها مخيلة السياب الأشباح ليكمل استشعارنا بغلبة الموت على العالم السفلي من الدار وانفصاله عن الحياة التي تمثلها السدرة والعصافير وسنلاحظ أن القراءتين لا تغلب إحدهما على الأخرى .

نتابع قراءة المقطع الشعري إذ يشرع السياب بذكر الأيام الخوالي للدار بإيجابياتها وسلبياتها ، وتشتمل الإيجابيات الأيام الجميلة المستقرة بدلالات القوة والأغاني التي تنشد

فيها ولقاءات العاشقين وقصص الهوى التي تروى ، أمّا السلبيات فهي أيام عانى فيها سكان الدار من الفقر والجوع والمرض والموت ومن الجهل الذي تركهم فريسة لقصاص يتلاعب بمشاعرهم ، ومن أتعس ما يحل بهم ان يهلك طفل لهم من شدة المرض ولا يملكون من أمرهم غير العويل . ولنعكس الحالة ونقرأ الدلالات على انها رموز وسنجد ان الدلالات الإيجابية والدلالات السلبية رموز لحقب مرت على البلد كان في بعضها يمتلك الفتوة والقوة والشباب ويتغنى برخائه وعزه واستقراره ، وفي بعضها لا تكون حاله على ما يسر فهو جزء من أمة كليلة لا تقدم له سوى الشكوى والبكاء على حاله ، وشعبه ألعبه في أيدي الدجالين يستغلون جهله وضعفه ، ولننفذ من قراءتنا الرمزية إلى الدلالات الحقيقية وسنلاحظ ان القراءتين لا تغلب منهما قراءة على الأخرى .

في المقطع الثالث يعرض السياب حاله الذي أوصله إليها المرض فهو عاجز مشلول إذا أراد المشي مشى على العكاز ويجتمع مع المرض عليه فقره وغريته ، ولم يبق له من شبابه وماضيه النضالي سوى ذكريات يستعيدها لعل فيها عزاء له ولقد كان في ماضيه عداء سباقاً في مجال الحرية ، وها هو ذا حائر في غريته بين المكوث في البلاد البعيدة والعودة إلى بلده ذلك البلد الذي حاربت الأقدار كل مناضل دافع عن ابنائه الفقراء والمرضى فلم تبق له ولابنائه سوى رحمة الله ، هذه دلالات حقيقية نلمحها في هذا المقطع وإذا أردنا ان نستشف دلالات رمزية تختفي وراءها سنلمح السياب رمزاً لكل المناضلين الذين أضحو عاجزين عن نضالهم فهم بين مغترب وغريب شتتهم عنف القوى العظمى والتقلبات السياسية فلا سبيل لهم لينصروا الضعفاء إلا أن تحل رحمة الله عليهم ، وإذا عكسنا القراءة ونفذنا من الدلالات الرمزية إلى الدلالات الحقيقية وجدنا ذلك ممكناً دون ان تغلب قراءة على أخرى .

وفي الخاتمة ابتهاج للسحاب أن يهطل على منزل العبيد وعلى قبر السياب ليرويهما من الظمأ ، وإذا أردنا الرمز فهو دعاء بالخير والاستقرار للوطن ولسيرة النضال التي ربما نتذكرها الأجيال ، والعكس ممكن في القراءتين أيضاً .

الخاتمة

الجهد التأويلي الذي قدمته هو نتاج إعادة قراءة النص والخروج بدلالات جديدة ، إذ يقدم منشئ النص دلالاتٍ معينة ظاهرة ليشرك المتلقي بتجربته الشعرية ، ثم يقوم المتلقي بدوره باستلام تلك الدلالات الظاهرة جاهزة ليتقمص دور منشئها ، وقد لا يحيط المتلقي بكل شحنات عبارات النص مما يدفعه إلى إعادة القراءة كي يصل إلى حالة الإشباع المرجوة من

التجربة الشعرية ، ولربما في تكراره تلقي النص يلح الدلالات المتمرسه وراء الدلالات الظاهرة ، أو قد تتولد لديه بفعل تجاربه النصية والثقافة المتراكمة قناعةً بتوليد النص من جديد وتقديمه حسب رؤيته وتجربته فينتج من كل ذلك قراءة ثانية جديدة للنص تفتح أفقاً ثانياً للنص ودلالاته ، وما قدمته في بحثي هو اصطياح لشحنات الدلالات الموضوعية في النص واستشفاف للدلالات المتخفية وراءها فجاءت القراءة الثانية على النحو الذي هي عليه في البحث ، وكل ما أرجوه هو كشف رؤيتي للقصيدة وتقديم قناعاتي للآخر علّه يشاركني الرؤية ، والله الموفق .

Abstract

The Poem Of Manzal Al-Aknan (House Of Proficiency) An Interpretational Study

Key word : [poem - Manzal Al-Aknan (House Of Proficiency)]

Assistant Instructor: Saleem Ahmed Ibrahim

Diyala State Directorate of Education

The field interpretational approach is concerned with studying the texts that implied more than one significance and no a significance dominates the other . It concentrates on a certain significance and then concludes the other significances if there are any to achieve what is called the poetic silence (Al-Saket Al-Shary) , which means that the reader passes through one significance to another without the dominance of this significance on the other . Whereas the texts that implied only a significance or implied more than one significance and each one dominates the other are not included in the scope of the approach . The poem of (Manzal Al-Aknan) House of proficiency is one of these poems that is included in the field of the interpretational approach . This made the researcher to deal with this poem in this study involving three parts . The first part : the initial reading , the second part : the second reading , and Al-Saket Al-Shary (the poetic Silence) .

الهوامش

- ١- ينظر : القراءات المتصارعة : ٥١ .
- ٢- هيرمنيوطيقا الشعر العربي : ٥٦-٥٧ .
- ٣- ديوان السياب : ٣١٨ .
- ٤- بدر شاكر السياب ، حياته وشعره : ٢٣ .
- ٥- ديوان السياب : ٣١٩ .
- ٦- المصدر نفسه : ٣١٩ .
- ٧- المصدر نفسه : ٣٢٠ .
- ٨- المصدر نفسه : ١٦٤ .
- ٩- قوى الظلام : اصطلاح أطلقناه على كل القوى الفاعلة بشكل سلبي في حياة الشعب العراقي أبان الاحتلال البريطاني وتشمل قوى الاحتلال ومن يعضدها من السياسيين والجواسيس وبضفى إليها القوى الفاعلة في الاضطرابات السياسية وما جرّته من مذابح ودماء أيام حكم عبد الكريم قاسم ، وهي قوى مؤثرة في تاريخ العراق قبل تاريخ تأليف السياب للقصيدة في ١٩٦٣/١/٣ م .
- ١٠- انتمى السياب للحزب الشيوعي في السنوات ١٩٤٥م-١٩٥٢م ، واشترك بالتظاهرات التي كان ينظمها الحزب في تلك الحقبة وسُجن أكثر من مرة وفُصل من وظيفته بسبب نشاطه السياسي . ينظر : بدر شاكر السياب دراسة في حياته وشعره : ٨٩-٩٠ ، ١٢٨ .
- ١١- هيرمنيوطيقية الشعر العربي : ٧٤ .
- ١٢- ينظر : المصدر نفسه : ٧٥ .

المصادر

- بدر شاكر السياب ، حياته وشعره ، عيسى بلاطة ، دار الشؤون الثقافية ، آفاق عربية ، العراق - بغداد ، ط٤ ، ١٩٨٧م .
- بدر شاكر السياب ، دراسة في حياته وشعره ، الدكتور : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت - لبنان ، ط٤ ، ١٩٧٨م .
- ديوان بدر شاكر السياب ، المجلد الثاني ، دار العودة - بيروت ، بيروت - لبنان ، ٢٠٠٥م .
- القراءات المتصارعة ، التنوع والمصادقية في التأويل ، بول ب.آرمسترونغ ، ترجمة وتقديم : فلاح رحيم ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٩م .
- هيرمنيوطيقا الشعر العربي ، نحو نظرية هيرمنيوطيقية في الشعرية ، د. يوسف اسكندر ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٨م .